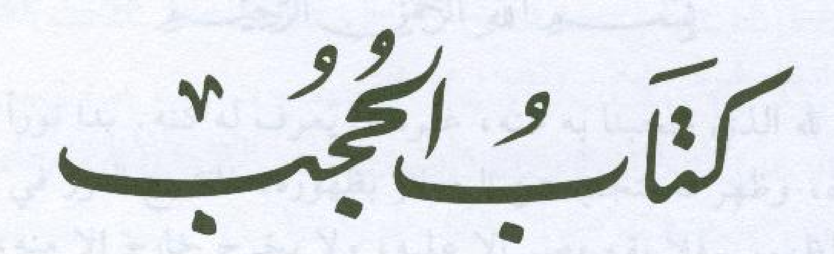


تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين محمد بن علي
ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي حجبنا به عنه، غيرة أن يُعرف له كنه. بدا نوراً فاستتر عن الأبصار بنوره، وظهر فاحتجب عن البصائر بظهوره. فاندرج النور في النور وبطن الظهور في الظهور. فلا يقع بصر إلا عليه، ولا يخرج خارج إلا منه، ولا ينتهي قاصد إلا إليه. فيا أولي الألباب أين الغيبة والحجاب؟

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل شوقًا عنهم وهم معي
فتبكيهم عيني وهم في سوادها وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي[1]

من كانت غيبته حجاباً عليه فلا حجاب ولا محجوب، ومن كانت هباته لا تتعدى يده فلا واهب ولا موهوبٌ، ينقل العالم من يد إلى يد، وما للواحد من الواحد بد.

أما بعد:

فإن من استوهب الواهب وهب على كل حال، ومن استوهب غيره فهو مستوهب محال. فإياه أسأل، وإليه أتضرع وأرغب، في الإمداد والإرفاد فإني المحتاج وهو الجواد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ رب الأسافل والأعالي، ومشهود الأباعد والأداني، الوهاب. سر الوجود المطلق محمد ﷺ فكان له به الخُلُق المحقق فله الخُلق ولنا التخلق، ولنا العلم والعين، وله معهما مقام التحقق داعية.

إعلم أنه لولا المحبة ما صح طلب شيء أبداً، ولا وجود شيء، وهذا سر: (فأحببت أن أعرف) ولما كانت الحركة من شيء إلى شيء. فالمحبة أصل في باب وجود الأعيان، وفي باب مراتبها ومقاماتها. وقد يتخيل أيضاً أن الخوف يوجب بعض ما ذكرناه فيجعله أصلاً ثانياً لما يوجب من الأفعال، وليس كذلك وإنما اندرج

---

(١) هذان البيتان هما لأبي مدين شعيب بن الحسن الأندلس التلمساني وهو من مشاهير الصوفية، أصله من الأندلس أقام بفاس وتوفي بتلمسان سنة ٥٩٤ هـ.

في الخوف حب النجاة. فلولا الحب في النجاة ما صحت الحركة من الخائف، إذ لا غير الخوف، فيتخيل أن الحركة خوفية وهي حبية. ألا ترى إلى من طلب ما جرت به العادة أن يُنفر منه، وهو العذاب فقال:

أريـــدك لا أريـــدك لـــلـــثـــواب ولـــكـــنـــي أريـــدك لـــلـــعـــقـــاب
وكـــل مـــآربـــي قـــد نـــلـــت مـــنـــهـــا ســـوى مـــلـــذوذ وجـــدي بـــالـــعـــذاب

واللذة محبوبة لذاتها، وهذا الطالب ما طلب العذاب الذي هو الألم فإن اللذة تضاده، وإنما طلب سبب الألم ليكوّن عنه اللذة، وهي خرق العادة، وهو الذي أشير إليه إذا قيل: ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب من ورد في قعر النيران. يشير إلى من تقوى وجده بمحبوبه ودام نظره إليه، والقرب منه. فما زال قلبه محترقاً باستيلاء نار الوجد عليه منعماً بنظر المحبوب إليه. وإلى هذا المقام أشار القائل بقوله:

مـــنـــعّـــمٌ بـــعـــذاب مـــعـــذب بـــنـــعـــيـــم

وليس هذا من باب الحقائق، وإنما هذا من باب سكر الأحوال، فلا يفرق بين أسباب النعيم والعذاب. وقد كان الحلاج على جلالة قدره ودعواه العريضة في استيلاء الحق عليه وفنائه فيه وما كان يشير إليه من الاتحاد في مثل قوله يقول:

مـــازجـــت روحـــك روحـــي فـــي دنـــوي وبـــعـــادي
فـــأنـــا أنـــت كـــمـــا إنـــك إنـــي ومـــرادي

وشبه هذا ما اشتهر به واشتهر عنه أحس بالألم عند وقوع البلاء وعندما أحس بتغير بشريته لطخ وجهه بدمه غيرة منه على المقام من وقوع العامة فيه، فإن حاله في ذلك الوقت يعطي ذلك، وهو القائل أي الحلاج:

مـا قـدَّ لـي عـضـو ولا مـفـصـل إلا وفـيـه لـكـم ذكـر
وحـرمـة الـود الـذي لـم يـزل يـطـمـع فـي إفـسـاده الـدهـر
مـا حـل بـي عـنـد نـزول الـبـلا بـأس ولا مـسـنـي الـضـر

وقال (فيه) أيضاً وهو مما يدلك على إحساسه بذلك:

فـلـمـا دارت الـكـاسـات دعـا بـالـنـطـع والـسـيـف
كـذا مـن يـشـرب الـراح مـع الـتـنـيـن فـي الـصـيـف

فجعله تنيناً. وحسبُ العارف بالمقامات من هذا الرجل ما قال.

والحاصل من أمره أنه كان صاحب إدلال لا صاحب سكر، وإذا كان الحب هو أعلى المقامات والأحوال، وأصلها والساري فيها، وكل ما سواه فرع منه فالأولى أن ترد إليه جميع المقامات والأحوال. ومما يفيدك أن الأمر الجامع والأصل الكلي كونه مقام أصل الوجود وسببه ومبدأ العالم وممده، وهو محمد ﷺ فاتخذه الله حبيباً، حين اتخذ غيره خليلاً، ونجياً، وصفياً.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أوتيت جوامع الكلم»[1] فمن حقيقة هذا السيد صلوات الله وسلامه عليه تفرعت الحقائق علواً وسفلاً.

وما على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[2]

فأعطى الله عز وجل أصل المقامات وهو المحبة أصل الموجودات وهو سيدنا محمد ﷺ. وبالحب كان الوجود المحدث. وقد ورد في الكتب المنزلة قال الله تعالى: «كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا وتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني»[3]. فقد جاء بأحببت وتحببت.

فإذا تحققت أن المحبة هي الأصل، وأنها أعلى ما يوهب من العُلا. فلا يؤيسنك علوها عن طلبها وقد قيل:

لا يؤيسنك من مجد تباعده فإن المجد تدريجاً وترتيبا

إن القناة التي شاهدت رفعتها تنمو وتنبت أنبوبًا فأنبوبا

هذا وإن اختص بها سيدنا محمد ﷺ فما اختص إلا بالكمال فيها ولكل موجود منها شرب، لكن تتفاضل المشارب، ومع أنها أعلى المقامات والوقوف معها حجاب عن المحبوب، فما ظنك بما يتفرع منها. ولما كان الأمر على الترقي والتداني إلى مقام التدلي والتلقي، لا بد أن يكون الأعلى حجاب على الأنزل، إذا

---

(١) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٣٩٧) [ج ٢ ص ٢٥٠] وابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما أعطى الله تعالى محمداً ﷺ . . .، حديث رقم (٣١٧٣٥) [ج ٦ ص ٣١٨] ورواه غيرهما.

(٢) هذا البيت هو للشاعر العباسي أبي نؤاس الحسن بن هانيء (١٤٦-١٩٨هـ).

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (٢٠١٦) [ج ٢ ص ١٧٣] والهروي في المصنوع [١/ ٢٣١].

كنت متدلياً. ولا بد أن يكون الأنزل حجاباً عن الأعلى إذا كنت متدانياً، لكن الصاعد محكوم عليه، والمتدلي حاكم. والكل في الحجاب، ومقام لا حجاب حجاب.

فصل متمم

إعلم أيها المحب كائناً من كان أن الحجب التي بينك وبين محبوبك كائناً من كان ليست شيئاً سوى وقوفك مع الأشياء لا للأشياء، كما يقول من لم يذق طعم الحقائق، وإنما وقف مع الأشياء لضعف الإدراك، وهو عدم النفوذ، وهو المعبر عنه بالحجاب، وهو عدم. والعدم لا شيء ولا حجاب، ولو كانت الحجب صحيحة لكان من احتجب عنك احتجبت عنه. والعرف ما نذكره إلا من كان الحق سمعه وبصره، وهو الذي يعرف ما يعبر عنه بالحجاب.

واعلم أنك إذا تفرغت لأمر ما بالكلية فبالضرورة تقف معه، وذلك الوقوف هو حجابك فتتخيل أن الوقوف معه حجبك، وليس كذلك والوقوف مع الخلق حجابك عن الحق، والوقوف مع الحق حجابك مع الخلق. وهذا من باب التوسع والإيناس، كما ورد في الكتاب والسنة من ذكر الحجب النورانية والظلمانية وعلى هذا التوسع ثبتت الحجب.

حجاب العلم

وهو أول الحجب الشريفة، وهو حجاب عن العين، والعين حجاب عن العلم الثاني، وهو الحق، وهو ما وجد له المعلوم. وقد يعلم ذلك قبل العين فيصير أيضاً هذا العلم الثاني حجاب عن العين. وهذه الثلاث مراتب لا تكون إلا إذا كان المعلوم كوناً من الأكوان.

وأما الذات المقصودة فليس إلا العلم الأول والعين لأنه يستحيل أن يقال لم لأنه من صفة الحدوث، لكن يقتضي أن يكون عليها العالم قسمين مثلاً وأن يكون التردد مَنَّا منه إليه بآثار مختلفة فيها كما قيل:

يكون معي ويدعوني إليه فاتركه وآتيه مجيبا
وأنظر حين يدعوني إليه فنشهد فيه ترتيباً عجيباً

فمعرفتنا بوجود الكعبة مثلاً علم، ومشاهدتها عين، ومعرفة ما وضعت له حق وهو العلم الثاني. فهذا المتداول في ألسنة القوم من علم اليقين وعينه، وحقه.

حِجَابُ الْحُب

إعلم أن الحب حجاب عن نفسه، فإنه يطلبك بالفناء والبقاء، وهما ضدان، وهما من أحكام الحب؛ لأنه يطالبك بطلب المشاهدة.

وهي البهت فيفنيك عنك، ويطالبك بامتثال الأمر فيبقيك معك، وإن آثرت امتثال الأمر آثرت المحبوب على نفسك مالم تتوهم وقوع الهجران بالمخالفة، فإن توهمت ذلك فإنما آثرت نفسك، وإن آثرت المشاهدة فأنت في حظ نفسك مؤثر لها على حظ المحبوب. فالحب يطالبك بحب الوصل كما يطالبك بحب الفراق إذا كان الفراق محبوباً لمحبوبك.

وقد قيل: «وكل ما يفعل المحبوب محبوب»

وقال آخر:

تعشقت فيه كل شيء يوده من الهجر حتى صرت أعشق صدَّه

وإن كنا نعقل أن حب الوصلة في الحب ذاتي، وحب الفرقة في الحب عرضي غير ذاتي. ولكن لا بد من حبه فإذا أحب المحب الفرقة فقد فعل ما لا تقتضيه حقيقة المحبة، وإن لم يحب الفرقة التي هي محبوب محبوبه فقد فعل مالا تقتضيه المحبة!

فالحاصل من هذا أن المحب هالك محجوج لا حجة له، فإنه حصل في مقام متناقض الأحكام. وأما قول من قال:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

فليس بتام ولا كامل في المحبة فإنه قال بالترك لا بالمحبة بخلاف قول الآخر:

أهوى هواه وأخشى من تعتبه وكل ما يفعل المحبوب محبوب

فالواحد تارك، وهل أحب أم لا فهو في موقف الاحتمال. والآخر أتم في المشي في هوى المحبوب لا أنه أتم في المحبة. وصاحب الترك والإرادة أتم في المحبة لأنه أتم في المشي في هوى المحبوب وتخليص الأمر عندي أن يحب لحب

الحبيب الذي هو الفرقة لا الفراق. مثل الراضي بقضاء الله تعالى وقدره، فإذا قضى بالكفر فهو يرضى بالقضاء لا بالمقضي به فإن المقضي هو الكفر وكذلك قضاء المحبوب بالفراق، ما هو عين الفراق؛ فحب المحب إنما يتعلق بإرادة المحبوب، الفرقة لا بالفرقة. فإنما يتعلق بهذا الباب قول مجنون بني عامر حين ضمته ليلى إلى صدرها فنظر إليها.

وقال: إليك عني فإن حبك شغلني عنك، فهذا فناء في الحب. ويسمى شهوة الحب وصاحبها ملتذ في اتصال دائم وقد قيل في المعنى:

ولما رأيت الحب يعظم قدره وما لي بها حتى الممات تداني
تعشقت حب الحب عمري ولم أقل كفاني الذي قد نلت منه كفاني

ولا يتصور في هذا المقام هجر لأن الصورة الروحانية المعنوية التي مسكنها المحب في نفسه من مشاهدة محبوبه ثابتة عنده، وليس لها وجد إلا فيه. ولهذا قيل:

ما لمجنون بني عامر من هواء غير شكوى البعاد والاغتراب
وأنا ضده وإن حبيبي في فؤادي لم يزل في اقتراب
فحبيبي معي وفيّ وعندي فلماذا أقول ما بي ما بي

والحس لا يقيده عن مشاهدة هذا المثال الحاصل عنده؛ لقوة سلطانه عليه وتحققه به. فإذا قبل المحب من خارج عن المحبوب طلب المحب البعد عنه لا العطف منه في عينه للمناسبة فإن الحب روحاني معنوي، والمثال كذلك فكانت المناسبة أتم، ووصلة الذات المفارقة تقع بعدها الفرقة والألم لأنه ليس بدائم الاتصال لما يعطيه المقام من تغير الأحوال فيتوهم مثل «قيس». هذا الفراق فخاف من الألم بعد النعيم، فوقع النفور منه للصورة الخارجة لأن الأجنبية مصاحبة لها، وعاشق الصورة الغريبة اكتفى والجار ذي القربى مقدم على الجار الجنب، وهذا ذوق يعز واجده ولا سيما في طريق الله تعالى ولو وجد القائلون بالمشاهدة والسماع الذين هم ضالة الصوفية هذا الأمر ما طلبوا شاهداً ولا سماعاً أبداً، لأنه مقام فرقة، ولهذا لم يجىء بالشاهد ولا بالسماع كتاب ولا سنة ولا جعلوه طريقاً ولا قربة، وكان من المباحات إلا الشاهد فإنه إلى المحظور أقرب منه إلى المباح.

الحبيب الذي هو الفرقة لا الفراق. مثل الراضي بقضاء الله تعالى وقدره، فإذا قضى بالكفر فهو يرضى بالقضاء لا بالمقضي به فإن المقضي هو الكفر وكذلك قضاء المحبوب بالفراق، ما هو عين الفراق؛ فحب المحب إنما يتعلق بإرادة المحبوب، الفرقة لا بالفرقة. فإنما يتعلق بهذا الباب قول مجنون بني عامر حين ضمته ليلى إلى صدرها فنظر إليها.

وقال: إليك عني فإن حبك شغلني عنك، فهذا فناء في الحب. ويسمى شهوة الحب وصاحبها ملتذ في اتصال دائم وقد قيل في المعنى:

ولما رأيت الحب يعظم قدره ... وما لي بها حتى الممات تداني
تعشقت حب الحب عمري ولم أقل ... كفاني الذي قد نلت منه كفاني

ولا يتصور في هذا المقام هجر لأن الصورة الروحانية المعنوية التي مسكنها المحب في نفسه من مشاهدة محبوبه ثابتة عنده، وليس لها وجد إلا فيه. ولهذا قيل:

ما لمجنون بني عامر من هواء ... غير شكوى البعاد والاغتراب
وأنا ضده وإن حبيبي ... في فؤادي لم يزل في اقتراب
فحبيبي معي وفيّ وعندي ... فلماذا أقول ما بي ما بي

والحس لا يقيده عن مشاهدة هذا المثال الحاصل عنده؛ لقوة سلطانه عليه وتحققه به. فإذا قبل المحب من خارج عن المحبوب طلب المحب البعد عنه لا العطف منه في عينه للمناسبة فإن الحب روحاني معنوي، والمثال كذلك فكانت المناسبة أتم، ووصلة الذات المفارقة تقع بعدها الفرقة والألم لأنه ليس بدائم الاتصال لما يعطيه المقام من تغير الأحوال فيتوهم مثل «قيس». هذا الفراق فخاف من الألم بعد النعيم، فوقع النفور منه للصورة الخارجة لأن الأجنبية مصاحبة لها، وعاشق الصورة الغريبة اكتفى والجار ذي القربى مقدم على الجار الجنب، وهذا ذوق يعز واجده ولا سيما في طريق الله تعالى ولو وجد القائلون بالمشاهدة والسماع الذين هم ضالة الصوفية هذا الأمر ما طلبوا شاهداً ولا سماعاً أبداً، لأنه مقام فرقة، ولهذا لم يجيء بالشاهد ولا بالسماع كتاب ولا سنة ولا جعلوه طريقاً ولا قربة، وكان من المباحات إلا الشاهد فإنه إلى المحظور أقرب منه إلى المباح.

ومما يؤيد ما أومأنا إليه كون رسول الله ﷺ ما أحب السماع قط ولا استدعاه ولا تعلق له به خاطر أصلاً وهو ﷺ الجامع للمقامات كلها حتى قال للمرأة التي نذرت أن تضرب بين يديه بالدف: إن كنت نذرت وإلا فلا[١].

وكل حديث روي عنه ﷺ في باب قيامه في السماع وأمثاله مستفعل استفعله من لا خلاق له ليتمكن بذلك من شهوته. وأكثر شيوخ هذه الطريقة في محل الضعف عن هذا الإدراك، بل هو من قوة النبوة والإرث الإلهي الصحيح وكذلك حب العبد ربه بهذه المنزلة، التي تقدمت فإن الفرقة لا تتصور فيه لأنه به، وفيه، ومنه، وإليه، وهو، فلا فراق. لكن ينبغي أن يعرف أي ذات شاهد حتى يفرق بين الذات الحقيقية التي هي «الهو» وبين الذات المجازية التي هي عبارة عن الصورة وفيها يقع التحول والتبدل فمتى ما طالع المحب ما عنده فيه فتلك المشاهدة.

ومتى ما طالع ما لم يكن عنده فتلك الرؤية والنعيم بها أتم فاحذر أن تطلبه بما يشهد له به، واطلبه من غير ما تشهد له به، لكن بمن يعرف هو نفسه به.

والله الموفق وهو حسبنا.

حجاب الخلوة

الخلوة: حجاب عن التجلي القريب الأعم.

والجلوة: حجاب عن التجلي القريب الأخص.

والواقف: مع كل واحد منهما محجوب.

---

(١) الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما يوفى به من نذر ما يكون مباحاً. .، حديث رقم (١٩٨٨٨) [ج ١٠ ص ٧٧] ورواه الترمذي في سننه، باب في مناقب عمر. .، حديث رقم (٣٦٨٩) [ج ٥ ص ٦٢٠] ورواه غيرهما ونص رواية البيهقي هي: عن عبدالله بن بريدة قال سمعت بريدة يقول خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها رسول الله ﷺ إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحت أستها ثم قعدت عليه فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان ليخاف منك يا عمر إني كنت جالساً وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف».

وقد ضمنهما قائل فقال، وإن كان لا يدري ما قال:

إلى الخلوات تأنس فيك نفسي كما أنس الوحيد إلى الجميع

فالواحد يطلبه في الخلوة حين يفقده في الملأ.

والآخر يطلبه في الملأ حين يفقده في الخلوة.

وهو لا يتقيد بهما فقد شهدا على أنفسهما بعدم المعرفة به. وقد قالت الطائفة رضي الله عنهم: من وجد الأنس به في الخلوة، وفقد ذلك الأنس في الملأ، فإنه إنما كان بالخلوة لا به. وكذلك بالعكس. ولكن الأنس بالخلوة أعلى، لأنها الحجاب الأقرب، والمقام الأسلم، والحال الأرضى.

حجاب الستر

طلب الاتصاف بأوصاف الملامية حجاب عن التحقق بها في الجبلة كما كان محمد ﷺ الذي كان من ربه من القرب بأدنى من قاب قوسين، فأصبح وليس عليه أثر من ذلك لأنه ما ورد عليه أمر لم يكن في فطرته، ولهذا كذبه قومه في هذا القرب، وفي هذا المعنى قال القائل:

فطرت على هواك فصنت وجدي كأني قد فطرت على جفاكا

فإن غيره ﷺ لما ورد على الأمر الغريب ورد وعليه أثر فيه، فكان يتبرقع فيما حكي عنه من النور الذي على وجهه فكان يأخذ بأبصار الناظرين.

حجاب الصحو

الصحو حجاب عن الفناء. فإنه يعطي المعرفة، والمعرفة تقتضي الأدب، والأدب يقتضي الحكمة، والحكمة لا تتقدم بصاحبها على شيء لم يبلغ وقته، كما قيل:

كانت باهية الشبيبة سكرة فصحوت فاستأنفت سيرة مجمل

فقعدت أرقب بالفناء كراكب عرف المحل فبات خلف المنزل

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

وجه صاحب هذا المقام لا يجيب نداء ما لا تقتضيه معرفته، لأنه صاح فيفوته نداء كثير.

حجاب الوحدانية

الواحد حجاب عن نفسه في الأسماء التي له في المراتب كالإثنين والثلاثة في أسماء الواحد لأن المصدر واحد والصادر واحد والمضروب في نفسه لا يصدر منه سوى نفسه، وإن كان كثيرًا فهو يظهر في آحاد نفسه، والعاد ناظر إلى الآحاد. فالواحد كله مبني على الوحدانية. وقد قيل:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلـــى أنـــه الـــواحـــد[1]

ولا يقر بالوحدانية إلا الواحد فلولا ما هو كل شيء واحد ما صح أن يدل على الواحد، ولا أن يعرف هو الواحد، ولا أن يقر بالوحدانية لأن كل شيء إنما يعرف غيره من نفسه لا من غيره. ولهذا معنى الفتح عندنا أن يكشف لك عنك فتعاين كل شيء فيك فلولا ما هو عندك ما عاينته إذا كشف لك عنك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. [سبأ: ٢٣]

وتأمل في قولنا إنما تعرف كل شيء من نفسك ففيه سر إلهي.

إبحث عنه في العلم بالعالم.

حجاب الاتحاد

الإتحاد: غلو في التوحيد. والتوحيد معرفة الواحد والأحد.

فالإتحاد: حجاب عن الحقيقة والصواب، فإنه يدعى فناء ما ليس بفاني، وعدم ما هو موجود لأن تصيّر ذاتين ذاتاً واحدة. هذا جهل إنما هو استهلاك في عين الحقيقة فيفنى من لم يكن كما قال العارف: فإذا شهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال السائرين حتى يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فلحقت به ولم تكن أنت هناك. كما قيل:

ظـهـرت لـمـن أبـقـيـت بـعـد فـنـائـه فـكـان بـلا كـون لأنـك كـنـتـه

وسُئل الجنيد رحمه الله عن التوحيد فقال: سمعت قائلاً يقول:

وغـنـى لـي قـلـبـي فـغـنـيـت كـمـا غـنـى وكـنـا حـيـثـمـا كـانـوا وكـانـوا حـيـثـمـا كـنـا

فأجابه بالمناوبة وهو الاتحاد عند أهله، وليس بحقيقة في الحقيقة. والتوحيد انتشاء العدد من الواحد؛ كالواحد إذا ضممته إلى الواحد في ظهور الاثنين، وزاد واحداً تكن الثلاثة، وأزله تفنى الثلاثة. وكذلك ما بقي من أسماء الأعداد. فبالواحد تظهر أعيان الأشياء، وبزواله تزول والاتحاد غيبوبة العدد بالواحد الذي به ظهر،

(١) هذا البيت هو للشاعر العباسي أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزي. ولد سنة ١٣٠ هـ وتوفي سنة ٢١١ هـ.

وفناؤه فيه من حيث الواحد فليس العدد غير الواحد، ولا هو نفس الواحد وللإضافات أحكام وهي المعلومات المطلوبة بالبرهان، وهو إثبات إضافة أو نفيها كإثبات القدم للباري تعالى، ونفيه عن العالم، ونفي الحدوث عن الباري تعالى وإثباته للعالم، وهكذا كل محمول على موضوع.

وأمّا المفردات فمعلومة بالفطرة فإذا وقع السؤال فيها، فإنما يقع من أجل الاصطلاح خاصة، ولهذا يقتنص بالحدود لا بالبراهين. فاعلم. والله المرشد.

حجاب توحيد الأفعال

توحيده في الأفعال هو رد الأفعال إليه خيرها وشرها، قبيحها وحسنها، طاعتها ومعصيتها، إيمانها وكفرها، وعليها يتعلق الحمد والذم كما قيل:

أودع فـؤادي حـرقـا أودع ... ذاتـك تـؤذي فـأنـت فـي أضـلـعـي
وارم سـهـام الـلـحـظ أو كـفـهـا ... أنـت بـمـا تـرمـي مـصـاب مـعـي
مـوقـعـهـا قـلـبـي وأنـت الـذي ... مـسـكـنـه فـي ذلـك الـمـوضـع

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران: ١٨١] والكسب لا أثر له إذ لا مؤثر إلاّ الله تعالى، وهذا التوحيد حجاب عن الأدب الإلهي.

حجاب الحضور مع توحيد الأفعال

حضورك مع توحيد الأفعال حضورك مع المعاني التي لها الأثر. لكن أنت في الواحد، مع علم اليقين، وأنت مع الآخر مع عين اليقين. فشغلك بالعلم في وقت العين أذهلك عنها قيل:

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل شوقًا عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي[1]

وكثير في الخلق من ينظر إليك وهو لا يراك، وليس بينك وبينه حجاب سوى ما قام بنفسه من الفكر. فالبصر في قبضة البصيرة مصروف إلى عالم الخيال، والجارحة شاخصة فيك وأنت لها كالمرآة ولكن صاحب هذا الحال في نظره إليك جمود.

(١) سبقت الإشارة إلى هذين البيتين.

حجاب الشوق والاشتياق

أما الشوق: فهو من أحكام المحبة، والشوق هبوب القلب إلى غائب، وهو حجاب في الحال عن موافقة المحبوب فإن مراد المحبوب في ذلك الوقت الفراق فالشائق غائب مفارق. فإن قيل:

فلا معنى لشكوى الشوق يومًا إلى من لا يزول عن العيان

وقال الشائق: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فشهد على نفسه بالحجاب في الوقت.

وأما الاشتياق: فهو حجاب أيضاً فإنه للموصول ويعطي الوقوف مع ديمومية الاتصال فوقوفه مع معدوم في الوقت وهي الديمومية فيحرم لذة الوقت كما قيل في تناسب لذة الوقت:

الليل إن وصلت ليل إن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القصر

وقال آخر في معنى ذلك:

فأشكو إن نأوا شوقاً إليهم وأبكي إن دنوا خوف الفراق

فهذا قد جمع حقيقة الشوق والاشتياق.

فالشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج عند اللقاء.

فالشوق حال، والاشتياق ثبوت.

حجاب المشاهدة

إذا ارتحل الشاهد من القلب مع وارداته وأيقن القلب بالمفارقة وسببه سوء أدب ظهر منك بضرب من الالتفات إلى غيره، للمؤانسة والمجالسة فلم يقدر القلب قدره فلما نودي بالرحيل هاج الشوق، وقامت به نيران الوجد وظهر منه الكمد، وهو بقاء القلب ودمعة العين في المشاهدة، كما قيل في المعنى:

تنفست الغداة وقد تولوا وعيسهم معارضة الطريق

فنادوا بالحريق فغاض دمعي   فنادوا بالحريق وبالغريق[1]

والحسرة على مفارقة الشاهد دليل على الالتذاذ به في زمان كونه في القلب والشاهد حجاب عن المشهود، فإن الشاهد إنما يظهر بعد ردهم لمقصودهم وبه تقع اللذة بخلاف المشهود، فإنه لا حسرة في فراقه.

حجاب حفظ الأدب

حفظ الأدب في الانبساط حجاب عن الشهود فإن القلب مصروف لحفظ الأدب، وهو واجب ولهذا قيل: اقعد على البساط وإياك والانبساط.

وقال العارف: دخلت البساط فزللت فطردت، فإذا رد صاحب الزلة بعد التوبة إلى البساط فإنه لا يجد تلك اللحظة التي كان يعرفها، لأن الكتابة عن المحو ليست كالكتابة على غير المحو، فإنها أصفى وأخلص وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾[الجاثية: ٢١] إشارة إلى بقائهم معه في بساط مشاهدته، ساء ما يحكمون في التساوي بين شخصين كما قيل في المعنى:

وكنت إذا ما جئت أدنيت مجلسي   ووجهك من ماء البشاشة يقطر

فمن لي بالعين التي كنت مرة   إليَّ بها في سالف الدهر تنظر

حجاب الهيبة

الهيبة وصف للقلب يمنعه من الرؤية، في بساط المشاهدة كما قيل:

أشتاقه فإذا بدا   أطرقت من إجلاله

لا خيفة بل هيبة   وصيانة لجماله

وأصد عنه تجلدا   وأروم طيف خياله

والجمال من الحضرة يثمر في القلب الهيبة، فإن الجمال مهوب والجلال معظم مخوف، بخلاف ما يعرفه أئمتنا.

---

(١)هذان البيتان هما للشاعر العباسي الوأواء الدمشقي محمد بن أحمد العناني أبو الفرج المتوفي سنة ٣٨٥ هـ.

فإنه طرأ في هذه المسألة تلبيس من وجه الجلال الإلهي الذي لا يمكن أن يُرى الحق فيه فإنهم يعتقدون أن ذلك هو الجلال المتجلي إلينا وليس كذلك ولكن للجمال جلال.

وهو الذي ترى الحق فيه، إذا قلنا رأيناه في مقام الجلال.

وأما قول هذا القائل: «وصيانة لجماله».

فهو مثل قول الشبلي: إني أغار على القديم أن يراه المحدث.

وقيل للآخر: أتريد أن تراه؟ فقال: لا. فقيل: لم؟ فقال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي.

وأما قوله «طيف خياله» فإنه أراد الشاهد، فكنى.

حجاب حفظ السر

حفظ السر حجاب، فإنه لا يكون إلا مع المفارقة. وأما بحضرة المحبوب فلا يشغله بالمشاهدة، ثم إن حفظ السر حجاب من مشاهدة الشاهد فإنه إذا أذيع لا يذاع إلا للغير ومذيعه مطرود عن باب الأمانة، كما قيل:

ومستخبر عن سر ليلى رددته   بعمياء من ليلى بغير يقين[١]
يقولون خبرنا فأنت أمينها   وما أنا إن أخبرتهم بأمين

حجاب الرؤية

الرؤية حجاب عن المرائي وإن كان للرؤية معنى لطيف يجده الرائي كما قيل:

ولكن للعيان لطيف معنى   لذا سأل المعاينة الكليم

ولكن العلم بالشيء ألطف منه في ذاته عند وقوع الإدراك وهو يطلبه موازياً للعلم. فلا يجده كذلك عنده فيكون رؤيته حجاب عليه كما قيل:

ولما رأيت الحق كنت حجابه

---

(١) البيت الأول هو للشاعر الأموي الأحوص الأنصاري، عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عاصم الأنصاري المتوفي سنة ١٠٥ هـ.

على أن إدراك الحقيقة في القرب غير أن الرؤية العظمى بخلاف ما ذكرناه، فإن المرئي هنا ليس على صورة العلم إلا بوجه ما، فإن المرئي ليس بمعلوم الماهية لكنه معلوم الوجود والسلب.

وأما الوجه الخاص للعارفين هنا فهو المشاهدة التي لهم هنا كما قيل:

رأيت ربي بعين قلبي — فقلت لا شك أنت أنت
أنت الذي حزت كل أين — فحيث لا أين ثم أنت
وليس للوهم فيك وهم — فيعلم الوهم حيث أنت
ففي فنائي فنى فنائي — وفي فنائي وجدت أنت[1]

والشاهد ما حصل من المشاهدة، وبه تقع اللذة، لا بالمشاهدة.

حجاب الكون

الكون حجاب والمشاهد له محجوب، يتمنى أنه لم يوجد كما قيل:

إذا ما بدا الكون الغريب لناظري — حننت إلى الأوطان حن الركائب

لأن الكون غريب عن وطنه وهو العدم فإن العدم له بذاته، فهو في وطنه الحقيقي، والوجد له مستفاد بحكم القسر وهو أيضاً وطني الذي حننت إليه لأني إنما تعشقت بالخروج عن وطني إلى الوجود، لأرى ما استفدت من الوجود؛ فلما أوقفني مع شكلي، وهو الكون فكأني رأيت نفسي إذ لم أشاهد سوى صورة نفسي، فتذكرت وطني فحننت إليه وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

والله المرشد.

---

(١) هذه الأبيات هي للإمام علي رضي الله عنه وكرم وجهه وجاءت الأبيات في الموسوعة الشعرية إصدار المجمع الثقافي على النحو التالي:

رَأَيْتُ رَبّي بِعَيْنِ قَلْبي — فَقُلْتُ لا شَكَّ أَنْتَ أَنْتا
أَنْتَ الَّذِي حُزتَ كُلَّ أَيْنٍ — بِحَيْثُ لا أَيْنَ ثَمَّ أَنْتا
فَلَيْسَ لِلأَيْنِ مِنْكَ أَيْنٌ — فَيَعْلَمُ الأَيْنُ أَيْنَ أَنْتا
وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فِيكَ وَهمٌ — فَيعلَمُ الوَهْمُ كَيْفَ أَنْتَا
أَحَطْتَ عِلماً بِكُلِّ شَيْءٍ — فَكُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ أَنْتَا
وَفِي فَنائي فَنا فَنَائي — وفِي فَنائي وَجَدْتَ أَنْتا

حجاب السكون)

السكون حجاب عن التحقق بمقتضيات العبودة من التقليب والتصريف كما قيل في ذلك:

أو ما رأيت الليث يأنف غيله   كبرًا وأوباش السباع تردد

فإن السكوت ثبوت وليس للكون ثبوت حقيقي وإنما هو مثبت وبابه الفناء فإذا أثبت فكأنه تشبّه وأنى ينبغي له ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٤] رأى ما ثبت من باب الإشارة والحركة للوجود ولها الدعوى، والله أغنى الشركاء عن الشرك.

حجاب القلق

القلق حجاب، وهو سطوات الشوق على القلوب بالهبوب إلى المحبوب أو الاشتياق بالهبوب إلى الدوام فصاحبه كما قيل:

لست أدري أطال ليلي أم لا   كيف يدري بذاك من يتقلى

أو تفرّغت لاستطالة ليلي   ولرعي النجوم كنت مُخِلاً[1]

حجاب الانبعاث

الانبعاث إلى المشاهدة، وهي حجاب عن الوهب فإنه يثبت عند السالك أن الفتح لا يكون إلا بالقرع، فلهذا استعمل الطلب كما قيل:

والنار في أحجارها مخبوءة   لا تصطلي ما لم تثرها الأزند[2]

---

(١) هذان البيتان هما للشاعر العباسي خالد الكاتب المتوفي سنة ٢٦٢ هـ وتتمتهما:

يا غزالاً مِنَ القُصُورِ تَجَلّى   صَامَ طَرْفي لِنَاظِرَيْكَ وَصَلّى

كُنْ عَزيزاً أَكُن ذَليلاً فَإِنّي   كُلَّما زدتَ عِزَّةً زِدتُ ذُلاً

(٢) هذا البيت هو من قصيدة طويلة للشاعر العباسي علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب ولد سنة ١٨٨ هـ وتوفي سنة ٢٤٩ هـ. ومطلع القصيدة هو:

قالَت حُبِستَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضائِرٍ   حَبسي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ

أَوَما رَأَيتَ اللَيثَ يَأْلف غيلَهُ   كِبراً وَأَوباشُ السِباعِ تَرَدَّدُ

وَالشَمسُ لَولا أَنَّها مَحجوبَةٌ   عَن ناظِرَيكِ لَمَا أَضاءَ الفَرقَدُ

وَالبَدرُ يُدْرِكُهُ السِرارُ فَتَنْجَلي   أَيّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ=

حجاب الفترة

الفترة حجاب عن الإنتهاض إلى المقصود، ولا بد لكل مريد منها، فإما وإما فإن أريد نهض راجلاً نحو مقصوده، وكان كما قيل في المعنى.

وما كنت إلا الشمس أخفى ضياءها   كسوف علاها ثم زال كسوفها

حجاب صلصلة الجرس

صلصلة الجرس حجاب عن المناسبة الكلية، فإن الألم إنما يكون لعدم المناسبة لكن سلطان هذه الصلصلة قوي لا يدفعه شيء كما قيل.

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع[١]

حجاب القرب

القرب حجاب عن الذات، لأن فيه مشاهدة بقاء الرسم، ومن بقي رسمه فلا مشاهدة ومن لا مشاهدة له فلا معرفة له بالذات كما قيل:

وفي القرب تبعيد عن إدراك ذاته   ومالي سوى الذات النزيهة مطلب

حجاب الرجوع

الرجوع هو حجاب فإن فيه مفارقة العين، ومنهم من يتألم كأبي يزيد رحمه الله حين حظي بحظوة من عنده فصعق، فإذا النداء ردوا عليَّ حبيبي فلا صبر له عني. فإذا أجبر من هذه حاله على الرجوع فإن الطريق تبعد عليه كما قيل أيضاً: إذا أخذ في الرجوع إليه يقرب الطريق إليه. وكما قيل:

أرى الطريق قريبًا حين أسلكه   إلى الحبيب بعيدًا حين أنصرف

= وَالغَيْثُ يَحضُرُهُ الغَمَامُ فَمَا يَرى   إلاّ وَرْيقُهُ يُراحُ وَيَرغَدُ
وَالنارُ في أَحجارِها مَخبوءَةٌ   لا تُصطَلى إن لم تُثِرْها الأزنُدُ
وَالزاعِبِيَّةُ لا يُقيمُ كُعوبَها   إلاّ الثِقافُ وَجَذوَةٌ تَتَوَقَّدُ

هذا وتتمة القصيدة يصل إلى ثمانية وعشرين بيتاً.

(١) هذا البيت هو مطلع قصيدة طويلة للشاعر المخضرم أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرّث المتوفي سنة ٢٧ هـ.

ومنهم من لا يشتكي تألماً في رجوعه ولكنه في حجاب.

حجاب تقارب الأوصاف

تقارب الأوصاف من الأوصاف حجاب قريب فإن فيها استشرافاً على منزل الأحبة، فيعظم قلقه وهيجانه، كما قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

فلا يزال يقطع المنازل بسرعة حتى يحل بمنتهى همته، فإن اعتنى به تكون تلك النهاية بداية لشيء هو أعلى قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

حجاب المراسلة

المراسلة حجاب القرب، وهو مخصوص بالرجال، وهو من باب المحبة وإعراض الحبيب ليس عن عداوة فإن الحب يمنع من ذلك قال الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣] ولكن فيه استجلاب الاستعطاف، وفيه ضرب من الالتذاذ.

كما قيل:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى فأين حلاوات الرسائل والكتب[(١)]

ولما كان الحب متناقض الأحكام دخله الألم واللذة من وجهين مختلفين يقتضيهما الحب كما قيل:

الحب فيه حلاوة ومرارة والحب فيه شقاوة ونعيم

حجاب التلوين

التلوين حجاب عن الرسوخ فإنه يأتي بالشيء ونقيضه، فصاحبه بين الحزن والفرح متردد وسببه الغرض، كما قيل:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ[(٢)]

---

(١) هذا البيت هو للشاعرة العباسية علية بنت المهدي، أخت هارون الرشيد ولدت سنة ١٦٠ هـ وتوفيت سنة ٢١٠ هـ.

(٢) هذا البيت هو للشاعر المخضرم النمر بن تولب بن زهير بن أقيش شاعر جاهلي أدرك الإسلام وهو كبير فأسلم وعدَّ من الصحابة توفي سنة ١٤ هـ.

حجاب الرجوع من البساط

الرجوع من البساط إلى منزل خرق العوائد في المشاهدة من غير أمر حرمان بيّن، وخسران مبين، وأنه متى طلب الرجوع إلى البساط، وطرد فلا يزال دمع العين قريح الفؤاد، كما قيل:

أتظعن عن حبيبك ثم تبكي   عليه فما دعاك إلى الفراق

وكما قال الآخر:

تطوي المراحل عن حبيبك دائما   وتظل تبكيه بدمع ساجم
وتنام بعد فراقه في غبطة   ليس المحب عن الحبيب بنائم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى   تشكو الفراق وأنت عين الظالم
هلا أقمت به على جمر الغضا   وقلبت وجدًا للحسام الصارم

هذا جزاء من آثر الأين على العين ومن ساوى بين الملائكة والحدادين، وهذه حالة تطلبها العامة من العارفين فمن أجابهم إليها كانت هذه حالته، ومن أنف لم يزل متمكناً مقرباً، ولا خفاء بأن الحجاب عظيم، وعذاب أليم.

حجاب من ذكر نفسه

من ذكر نفسه بمقامها الذي لا تقتضيه المحبة، وهو محب فهو مُدَّع محجوب كما قيل:

أنا المأمون والملك الهمام   خلا أني بحبك مستهام[1]
أترضى أن أموت عليك وجدًا   ويبقى الناس ليس لهم إمام

وإذا كانت المحبة تقتضي تعظيم المحبوب، وفناؤك عن نفسك وتدبيرك، فكيف يتمكن لك ذكر نفسك بالتعظيم وقد قيل: ولا خير في حبٍ يدبر بالعقل.

والمحب منطق ولا ناطق، المنطق محكوم، في قبضة منطقه، والقابض عليه حبه، فكيف يتصور أن يذكر نفسه.

---

(١) البيت الأول هو للخليفة العباسي المأمون، عبد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفي سنة ٢١٨ هـ.

حجاب كتمان المحبة

كتمان المحبة حجاب فإنه دليل عدم استحكام سلطانها، بل لا يصح كتمان المحبة أصلاً فإن سلطان المحبة أقوى من كل سلطان، كما قال الخليفة هارون الرشيد وهو مقسم:

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

ولا يصح كتمان المحبة، فإن لسانها لسان حال، ليس لسان مقام، كما قيل:

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للفؤاد بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والفتى مغلوب
إني لأحسد ذا هوى مستحفظا لم تتهمه أعين وقلوب(١)

وأما الكتمان المذكور عند أصحابه فهو أن لا ينطق باسم محبوبه لأسباب وإليه أشار القائل حيث قال:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمت بوجدي
فإذا كان في القيامة نودي من قتيل الهوى تقدمت وحدي

فإن كان الحبيب المحبوب محصوراً فقد يكتم الاسم من أجل الوشاة، لأنه يؤدي إلى الفراق، وإن كان غير محصور، فتركه الاسم احترام.

كما قيل في ذلك:

عليل الجسم قد هجر المناما لصاحب خفية الواشين لاما
يهيم بروح قدس لا يساما إذا ما أبصر الشعرى تسامى
يقول أنا القتيل بغير سهم وذاتي كلها مُلئت سهاما

(١) هذه الأبيات هي للشاعر العباسي أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، أبو إسحاق. المولود سنة ١٣٠ هـ والمتوفي سنة ٢١١ هـ.

كتمت اسم الحبيب عليَّ مني وراعيت المودة والذماما
ولم أخف اسمه حذرًا عليه ولكني ابتغيت الاحتراما

والجامع لباب الكتمان، أن صاحبه ذو عقل ونظر. فهذا ناقص عن درجة الحب كما قيل: ولا خير في حب يدبر بالعقل وقال آخر: الحب أملك للنفوس من العقول، والكتمان حجاب.

حجاب العلل

العلل حُجُب وذلك أن كل أحد إنما يراك من حيث هو لا من حيث أنت، ومن رآك من حيث هو فإنما رأى نفسه، ولقد كنت يوماً بمدينة قرطبة وأنا ماش إلى صلاة الجمعة ومعي جماعة من إخواني وذلك في أيام جاهليتي، وفي الجماعة شخص من أخص مَن عندنا، وكان متهماً بغلام حسن الوجه، وكان في ذلك اليوم محبوبه قابضاً بشماله، فمررنا ببعض إخواننا فسلم علينا، ونظر إلى المحب ومحبوبه، فقال للمحب: إن محبوبك لكريه المنظر، وما أعجبك منه؟ فأنشد في الحين بيتين فلا أدري أتمثل بهما أم ارتجلهما؟، وهما:

رأى وجه من أهوى عذولي فقال لي أجلك عن وجه أراه كريها
فقلت له: وجه الحبيب مراية وأنت ترى تمثال وجهك فيها

فتأمل ما أومأت إليه في سياق هذه الحكاية.

حجاب الروح القدسي

الروح القدسي من الإنسان مطلب يناقض مطلب الطبع فإن النفس الطبيعية أقوى حكمًا في الإنسان من روحه القدسي، كما قيل:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة

فلو أن الروح لا تسعى في رد الطبع إليه لاستراح وأراح النفس، وكان يفتح لها وجود الحق منها، فإن لها وجهًا إليه، وهو الذي يعتمد عليه عند الاضطرار، ولولا ذلك ما دلت على التوحيد.

كما قيل في المعنى:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[١]

فمطلب الروح للنفس من مقامه حجاب عظيم يعسر رفعه إلا لمن نوَّر الله تعالى بصيرته بنور النبوة العامة والخاصة.

حجاب العارف المردود

العارف المردود إلى عالم الضيق والحس متألم مغموم بطرق، ولو سألته لقال:

ولولا الضرورة ما جئتكم وعند الضرورة آتي الكنفا

وذلك أن مقامات الأضداد في عدم احترام الحضرة، مع علمك بما ينبغي لها شديد حمله عند العارفين. وفي هذا المقام قال ﷺ: «ما ابتلي أحد من الأنبياء بمثل ما ابتليت به»[٢].

ومنه: غضب موسى عليه السلام حين ألقى الألواح.

ومنه: دعاء نوح عليه السلام على قومه.

وهو حجاب اليد الإلهية المتصرفة في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

حجاب المخالفة

المخالفة حجاب فإنها من أحكام المحبة، وهي تناقض المحبة، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[٣]

وكما قال الآخر في هذا المعنى:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا البيت.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع

(٣) هذان البيتان هما للشاعر العباسي أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، أبو إسحاق، وقد سبقت الإشارة إليه.

فهاتان حالتان متناقضتان في الحب يهلك المحب بينهما، فإن المحب يطلب الاتصال بالمحبوب، والاتحاد به، ويطلب موافقة المحبوب فيما يريده منه، فإن وافقه هنا لم يطلب الوصال، وأنه لو طلب الوصال لم يرد ما أراد المحبوب فهو مغلوب محجوب.

نهاية الكتاب

تم كتاب الحجب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلى الله على من لا نبي بعده وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين.

[ملحق في الحجب ورفعها من كتاب «الفتوحات المكية»

وهو عبارة عن]

الباب الموفي خمسين وثلاثمائة

في معرفة منزل تجلي الاستفهام ورفع الغطاء

عن أعين المعاني وهو من الحضرة المحمدية من

اسمه الرب

إذا صُعِقَ الرُّوحُ من وَحْيِه فكيف بهَيْكل ظَلمائِه
لقد ثبَّتَ الله أركانَهُ وأجراه فَلَكاً على مائِه
وما هو بَحْرٌ له ساحلٌ وأين التَّناهي لأسمائِه
أبو الكون لو كنتَ تدري به وتشهدُه عينُ أبنائِه
فلا تفرحنّ بإتيانه ولا تقْعُدَنّ بسيسائِه
فسبحان مُذهب أعياننا إذا ما كَفَرْنا بنعمائِه
ويا عجباً إذا كفرنا بها وأني من عين آلائِه

إعلم أيدنا الله وإياك أن هذا المنزل منزل الحجب المانعة والآلات الدافعة.

فمنها: حجب عناية:

مثل قوله ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب أو سبعين حجاباً، الشك مني، من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»(١).

---

(١) لم أجده بهذا النص إنما وردت ألفاظه بنصين منفصلين الأول هو: «دون الله سبعون ألف حجاب نور وظلمة، وما تسمع نفسي شيئاً من حس تلك الحجب إلا زهقت نفسها». (رواه أبو يعلى في مسنده، حديثه رقم ٧٥٢٥ [ج ١٣ ص ٥٢٠]).

والثاني هو: «عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار=

وهنا نكتة وإشارة:

أنّ البصر هنا بصر الخلق، الذي الحق بصره، وهو القابل لهذه الحجب، وهو الموصوف بأن الحق بصره، وهو عين سبحات الوجه. فإن الله لا يزال يرى العالم ولم يزل، وما أحرقت العالم رؤيته.

ومنها: حجب غير عناية:

مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فاعلم أن الحجب على أنواع:

حجب كيانية بين الأكوان، مثل قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ومنها: حُجُب احتجبت بها الخلق عن الله مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥].

ومنها: (حُجُب احتجب بها الله عن خلقه) مثل قوله ﷺ: «إن الله يتجلى يوم القيامة لعباده ليس بينه وبينهم إلا رداء الكبرياء على وجهه»(١).

وفي رواية: بينه وبين خلقه ثلاثة حجب أو كما قال.

ومنها: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

كما كلم موسى عليه السلام من حجاب النار، والشجرة، وشاطىء الوادي الأيمن، وجانب الطور الأيمن، وفي البقعة المباركة، وكما قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فكلم الله المستجير من خلف حجاب محمد ﷺ إذ كان

= وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور». وفي رواية أبي بكر النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». (صحيح مسلم، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه». حديث رقم 179 [ج 1 ص 161].

(١) رواه مسلم في صحيحه بلفظ: «عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

هو عين الحجاب لأن المستجير من المشركين منه سمع كلام الله فلا نشك أن الله كلمنا على لسان رسول الله ﷺ وكما أيضاً كلمنا من وراء حجاب المصلي إذا قال: «سمع الله لمن حمده». فألسنة العالم كلها أقوال الله، وتقسيمها لله فيضيف إلى نفسه منها ما شاء ويترك منها ما شاء.

فأما الحجب الكيانية التي بين الأكوان فمنها: جنن ووقايات.

ومنها: عزة وحمايات. كاحتجاب الملوك، وحجاب الغيرة على من يغار عليه، كما قال في ذوات الخدور: وهن المحتجبات.

ومن ذلك: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥].

وأما الوقايات والجنن:

فمنها الحجب التي تقي الأجسام الحيوانية من البرد القوي والحر الشديد، فيدفع بذلك الألم عن نفسه، وكذلك الطوارق يدفع بها في الحرب المقاتل عن نفسه سهام الأعداء ورماحهم وسيوفهم فيتقي هذا وأمثاله بمجنه الحائل بينه وبين عدوه، ويدفع بذلك عن نفسه الأذى من خوذة، وترس، ودرع.

وقد تكون حجب معنوية يدفع بها الأذى الشخص عمن يتكرم عليه، مثل: شخص يصدر منه في حق شخص آخر ما يكرهه ذلك الشخص لكونه لا يلائم طبعه ولا يوافق غرضه فيلحق به الذم لما جرى منه في حقه فيقوم شخص يجعل نفسه له وقاية حتى يتلقى هو في نفسه سهام ذلك الذم فيقرر في نفس الذام أنه السبب الموجب لذلك، وأن ذلك الأذى كان كله من جهته حتى يتحقق ذلك الذام هذا الأمر أنه كان من جهة هذا الشخص بأي وجه أمكنه التوصل إليه فيعلق الذم به ويكون حائلاً بينه وبين الشخص الذي كان منه الأذى لذلك الذم فوقى عرضه بنفسه، كما نلحق نحن من الأفعال ما قبح منها مما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا مع علمنا أن الكل من عند الله. ولكن لما تعلق به لسان الذم فدينا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدباً مع الله، وما كان من خير وحسن رفعنا نفوسنا من الطريق وأضفنا ذلك إلى الله حتى يكون هو المحمود أدباً مع الله وحقيقة، فإنه لله بلا شك مع ما فيه من رائحة الاشتراك بالخبر الإلهي في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧]، فأضاف العمل وقتًا إلينا ووقتاً إليه، فلهذا قلنا فيه رائحة اشتراك، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فأضاف الكل إلينا وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٨] فله الإلهام فينا ولنا العمل بما ألهم، وقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] فقد يكون عطاؤه الإلهام، وقد يكون خلق العمل فهذه مسألة لا يتخلص فيها توحيد أصلاً، لا من جهة الكشف ولا من جهة الخبر. فالأمر الصحيح في ذلك أنه مربوط بين حق وخلق غير مخلص لأحد الجانبين فإنه أعلى ما يكون من النسب الإلهية أن يكون الحق تعالى هو عين الوجود الذي استفادته الممكنات فما ثم إلا وجود عين الحق لا غيره والتغييرات الظاهرة في هذه العين أحكام أعيان الممكنات فلولا العين ما ظهر الحكم ولولا الممكن ما ظهر التغيير فلا بد في الأفعال من حق وخلق.

وفي مذهب بعض العامة أن العبد محل ظهور أفعال الله، وموضع جريانها فلا يشهدها الحس إلا من الأكوان ولا تشهدها بصيرتهم إلا من الله من وراء حجاب، هذا الذي ظهرت على يديه المريد لها المختار فيها، فهو لها مكتسب باختياره، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومذهب بعض العامة أيضاً: أن الفعل للعبد حقيقة، ومع هذا فربط الفعل عندهم بين الحق والخلق لا يزول فإن هؤلاء أيضاً يقولون: إن القدرة الحادثة في العبد التي يكون بها هذا الفعل من الفاعل أن الله خلق له القدرة عليها فما يخلص الفعل للعبد إلا بما خلق الله فيه من القدرة عليه فما زال الاشتراك وهذا مذهب أهل الاعتزال فهؤلاء ثلاثة أصناف: أصحابنا، والأشاعرة، والمعتزلة.

ما زال منهم وقوع الاشتراك وهكذا أيضاً حكم مثبتي العلل لا يتخلص لهم إثبات المعلول لعلته التي هي معلولة لعلة أخرى فوقها، إلى أن ينتهوا إلى الحق في ذلك الواجب الوجود لذاته الذي هو عندهم علة العلل فلولا علة العلل ما كان معلول عن علة إذ كل علة دون علة العلل معلولة، فالاشتراك ما ارتفع على مذهب هؤلاء.

وأما ما عدا هؤلاء الأصناف من الطبيعيين والدهريين فغاية ما يؤول إليه أمرهم أن الذي نقول نحن فيه أنه الإله تقول الدهرية فيه إنه الدهر، والطبيعيون إنه الطبيعة،

وهم لا يخلصون الفعل الظاهر منا دون أن يضيفوا ذلك إلى الطبيعة. وأصحاب الدهر إلى الدهر، فما زال وجود الاشتراك في كل نحلة وملة وما ثم عقل يدل على خلاف هذا ولا خبر إلهي في شريعة تخلص الفعل من جميع الجهات إلى أحد الجانبين فلنقره كما أقره الله على علم الله فيه وما ثم إلا كشف وشرع وعقل، وهذه الثلاثة ما خلصت شيئاً ولا يخلص أبداً دنيا ولا آخرة، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة: ٢٤] فالأمر في نفسه والله أعلم ما هو إلا كما وقع ما يقع فيه تخليص لأنه في نفسه غير مخلص إذ لو كان في نفسه مخلصاً لا بد إن كان يظهر عليه بعض هذه الطوائف ولا يتمكن لنا أن نقول الكل على خطأ، فإن في الكل الشرائع الإلهية، ونسبة الخطأ إليها محال، وما يخبر بالأشياء على ما هي عليه إلا الله. وقد أخبر فما هو الأمر إلا كما أخبر لأن مرجوع الكل إليه فما خلص فهو مخلص وما لم يخلص فما هو في نفسه مخلص فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فاتفق الحق والعالم جميعه في هذه المسألة على الاشتراك وهذا هو الشرك الخفي والجلي. وموضع الحيرة فلا يرجح فما ثم إلا ما قلناه.

فإذ قد قررنا في هذه المسألة ما قررناه فلنقل إن الجود الإلهي والغيرة الإلهية اقتضيا أن يقولا ما نبينه إن شاء الله: وذلك أن المتكلمين في هذا الشأن على قسمين: الواحد: أضاف الأفعال كلها إلى الأكوان فقال لسان الغيرة الإلهية: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨] أي حادثاً.

وأما القسم الثاني:

فأضاف الأفعال الحسنة كلها إلى الله وأضاف الأفعال القبيحة إلى الأكوان فقال لسان الجود الإلهي ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] لا تكذيباً لهم بل ثناء جميلاً، وما ثم من قال أن الأفعال كلها لله ولا للأكوان من غير رائحة اشتراك فلهذا حصرناها في قسمين من أجل الطبيعية والدهرية.

وأما حجب العناية: وهي حجب الإشفاق على الخلق من الإحراق، فهي الحجب التي تمنع السبحات الوجهية أن تحرق ما أدركه البصر من الخلق وسبب ذلك أن الله قد وضع الدعاوى في الخلق لأن أعيانهم لما اتصفت بالوجود بعد العدم وأن

ذلك الوجود كان عن ترجيح المرجح الذي هو واجب الوجود فما أنكره أحد، وإن كانت قد تغيرت العبارات عنه باسم طبيعة ودهر وعلة وغير ذلك فهو هو لا غير، فرأوا أن الوجود لها وإن كان مستفاداً فإنه لهم حقيقة وأن أعيانهم هم الموجودون بهذا الوجود المستفاد، وهذه هي أعيان الحجب التي بين الله وبين خلقه فلو كشفها عموماً كما كشفها خصوصاً لبعض عباده لأحرقت أنوار ذاته المعبر عنها بسبحات وجهه ما أدركه بصره من أعيان الموجودات أي أن بصره ما كان يدرك من الموجودات سوى وجود الحق ويذهب الكل الذي قررته الدعاوى فيتبين أنه الحق لا غيره فعبر عن هذا الذهاب بالإحراق لما جعلها أنواراً والأنوار لها الإحراق لكنه تعالى أبقى حجب الدعاوا ليتميز أهل الله من غيرهم، فلم تزل الممكنات عند أهل الله من حيث أعيانهم موصوفين بالعدم ومن حيث أحكامهم لم يزالوا موصوفين بالوجود وهو الحق كما قال تعالى: «كنت سمعه وبصره» في الخبر الصحيح. فأثبت العين للعبد وجعل نفسه عين صفته التي هي عين وجوده عين صفة العبد، فعين الممكن ثابتة غير موجودة والصفة موجودة ثابتة وهي عين واحدة ولو تكثرت بنسبها فإنها كثيرة في النسب فهي سمع وبصر وغير هذين إلى جميع ما في العالم من القوى من ملك وبشر وجان ومعدن ونبات وحيوان ومكان وزمان ومحل ومعقول ومحسوس وما ثم إلا هذا.

ولما قرر الله دعاوى المدعين بإرسال الحجب بينهم وبين ما هو الأمر عليه وشغلهم بالحجب التي بينهم وبينه في الأفعال وضرب الكل بالكل انفرد بخاصته وجعلهم جلساء له عنده بالشهود وفي صورهم المحسوسة بالذكر فهو جليس الذاكرين وهم آخر الطوائف ليس بعدهم أحد له نعت يذكر قال تعالى لما وصفهم ذكراناً وإناثاً: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فختم بجلسائه وما بعد جلسائه من يقبل صفة إلا صفة بعد عن هذه المجالسة ألا ترى أبا يزيد رحمه الله حين جهل الأسماء الإلهية وما تستحقه من الحقائق كيف صنع لما سمع القارىء يقرأ يوم الجمعة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ١٩].

طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وتأوه وقال هذا عجب كيف يحشر إليه من هو جليسه فإنه في تلك الحالة كان جليساً مع الأسماء من حيث ما هي دالة على الذات كل واحد منها لم يكن مع الاسم من حيث ما تطلبه حقيقته من عين دلالته على الذات فأنكر ما لم يعطه مشهده مع كونه كلام الحق وقد وقع منه الإنكار بل ما

وقع منه إلا التعجب خاصة فهو يشبه الإنكار وليس بإنكار حتى أنه لو كان هذا القول من غير الله لأمر القائل بالسكوت وزجره عن ذلك وإنما الرجل أظهر التعجب من قول الله في حق المتقين الذين هم جلساء الله كيف يحشرون إليه؟ فكأنه إبراهيمي المشهد في طلب الكيفية في إحياء الموتى فأراد أبو يزيد ما أراده إبراهيم في كيفية إحياء الموتى لاختلاف الوجوه في ذلك لا إنكارًا لإحياء الموتى فدل هذا الكلام من أبي يزيد على حاله في ذلك الوقت فهذا مثل قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ١٩] الرحمة تناقض العذاب إلا على الوجه الذي قررناه في المنزل الذي قبل هذا المنزل وهو منزل فتح الأبواب، كذلك أبو يزيد لو علم أن المتقي ما هو جليس الرحمن وإنما هو جليس الجبار المريد العظيم المتكبر فيحشر المتقي إلى الرحمن ليكون جليسه فيزول عنه الاتقاء فإن الرحمن لا يتقي بل هو محل موضع الطمع والإدلال والأنس لكنهم رضي الله عنهم صادقون لا يتعدون ذوقهم في كل حال، بخلاف العامة من أهل الله فإنهم يتكلمون بأحوال غيرهم والخاصة لا سبيل لهم إلى ذلك، وإن اتفق أن يتكلم أحد منهم في حال نبي أو ولي هو فوقه فيبين أنه مترجم عن حال غيره حتى يعرف السامع عمن يقول هذه حالهم رضي الله عنهم ولا يقع منهم مثل هذا إلا في النادر لضرورة تدعو إليه، فإن لهم الكشف الخبري عن مقامات من هو فوقهم وما لهم الكشف الذوقي إلا فيما هو مقامهم وحالهم.

فلولا هذه الحجب التي أسدلها الله بين الأكوان وبينه ما تميزت المراتب واختلطت الحقائق وهذا سبب وضع الحدود في الأشياء.

وقد لعن الله من غَيَّرَ منار الأرض.

وصل:

ومن هذا الباب أن الله ما جمع لأحد بين مشاهدته وبين كلامه في حال مشاهدته فإنه لا سبيل إلى ذلك إلا أن يكون التجلي الإلهي في صورة مثالية فحينئذ يجمع بين المشاهدة والكلام وهذا غير منكور عندنا وقد بلغنا عن الشيخ العارف شهاب الدين السهروردي ببغداد رضي الله عنه أنه قال بالجمع بين المشاهدة والكلام ولكن ما نقل عنه أكثر من هذا فإني سألت الناقل فلم يذكر لي نوع التجلي والظن بالشيخ جميل فلا بد أن يريد التجلي الصوري ألا ترى السيارى من رجال رسالة

القشيري حيث قال: ما التذ عاقل بمشاهدة قط، ثم فسر فقال لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة والخطاب في حال الفناء لا يصح لأن فائدة الخطاب أن يعقل ولذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وما زال البشر عن حكم البشرية كمسألة موسى والحجاب عين الصورة التي يناديه منها وما يزول البشر عن بشريته ولئن فني عن شهودها فعين وجودها لا يزول والحد يصحبها. وإنما قلنا هذا لأني سمعت بعض الشيوخ يقول: هذا حظ البشر فإذا زال عن بشريته كان حكمه حكماً آخر فأبنت له رضي الله عنه أن الأمر ليس كما يظنه، فلما تحقق ما ذكرناه رجع عن ذلك وقال: ما كنت أظن أن الأمر على ما قلته لم أجعل بالي من هذا فإنه تكلم في شرح الآية فغلط ما تكلم في ذلك عن ذوق الأمر ومن هنا يقع الغلط.

ونحن نعلم أن الذي قاله الله حق كله وأنه لا يخالف الأذواق فلا بد أن يكون كلام الذائق مطابقاً للإخبارات الإلهية حتى يقول من لا معرفة له بمقام الرجال إن هذا المتكلم يتكلم بما لا يخالف ما جاء به قرآن أو سنة إنما هو أخذه منهما وهو مفسر لهما وصاحب الذوق ما قال إلا ما ذاقه فمن المحال أن يخالف شيئاً مما جاء عن الله لكن الأجنبي الذي لا ذوق له يقول هذا عن الذائق بل جماعة من أهل الطريق ممن لا ذوق لهم يتخيلون مثل هذا ويقولون إن فلاناً يتكلم من حيثما ورد في الأخبار الإلهية ليس له مادة غيرها وينكرون الذوق لأنهم ما عرفوه من نفوسهم مع كونهم يعتقدون في نفوسهم أنهم على طريق واحدة وكذلك هو الأمر أصحاب الأذواق هم على طريق واحدة بلا شك غير أن فيهم البصير والأعمى والأعشى، فلا يقول واحد منهم إلا ما أعطاه حاله لا ما أعطاه الطريق ولا ما هو الطريق عليه في نفسه ولا سيما السلوك المعنوي فإن عمى القلوب أشد من عمى الأبصار، فإن عمى القلوب يحول بينك وبين الحق وعمى البصر الذي لم ير قط صاحبه ليس يحول إلا بينك وبين الألوان خاصة ليس له إلا ذلك وهذا العمى من الحجب وكذلك الصمم والقفل والكنّ والغشاوة دون العمى في الحكم إلا أن تكون الغشاوة تعطي الظلمة فلا فرق بينهما وبين العمى، فإن خرجت عن حد الظلمة إلى حد السدفة فقد يكون حال صاحبها أحسن من حال صاحب الظلمة ومن حال الأعمى، قال بعضهم لمحمد ﷺ ومن بيننا وبينك حجاب وهو الأكنة ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥]، أي اعمل في رفع ذلك ويحتمل قولهم إننا عاملون في رفع ذلك في حق من يحتمل

صدقه عندهم، فإنهم اعترفوا أن قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه فما جحدوا قوله ولا ردوه كما اعتقد غيرهم ممن لم يقل ذلك، فلا أدري ما آل إليه أمر هؤلاء فإنهم عندي في مقام الرجاء فإنا نعلم قطعاً أن الرسول يعمل في رفع الغطاء عن أعينهم بلا شك حتى قال: «لأزيدن على السبعين»[١] . ولذا قال في الآية: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [إبراهيم: ٢]، ولم يقل وويل لكم فهذا يدل بقرينة الحال أنهم عاملون في رفع الحجاب وإخراج قلوبهم من الأكنة وإنما كثرة الأكنة لاختلاف أسباب توقفهم في قبول ما أتاهم به، فمنهم من كنه الحسد وآخر الجهل وآخر شغل الوقت بما كان عنده أهم حتى يتفرغ منه والكل حجاب.

ومن أعجب الأشياء الواقعة في الوجود ما أقوله وذلك أن الملائكة إذا تكلم الله بالوحي كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة ورسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كسلسلة على صفوان يصعق وهو أشد الوحي عليه فينزل جبريل به على قلبه فيفنى عن عالم الحس ويرغو ويسجي إلى أن يسري عنه وإنه لينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقاً وموسى عليه السلام كلمه الله تكليماً بارتفاع الوسائط وما صعق ولا زال عن حسه وقال وقيل له وهذا المقام أعظم من مقام الوحي بوساطة الملك فهذا الملك يصعق عند الكلام وهذا أكرم البشر يصعق عند نزول الروح بالوحي، وهذا موسى لم يصعق ولا جرى عليه شيء مع ارتفاع الوسائط وصعق لذلك الجبل، فاعلم أن هذا كله من آثار الحجب فإن الحكم لها حيث ظهرت، فإن الله لما خلقها حجباً لم يمكن إلا أن تحجب ولا بد، فلو لم تحجب لما كانت حجباً، وخلق الله هذه الحجب على نوعين معنوية ومادية، وخلق المادية على نوعين كثيفة ولطيفة فالكثيفة لا يدرك البصر سواها واللطيفة يدرك البصر ما فيها وما وراءها الشفافة يدرك البصر ما وراءها ويحصل له الالتباس إذا أدرك ما فيها كما قيل:

---

(١) أنظر تفسير الطبري [ج ١ ص ١٩٩] وتفسير الدر المنثور [ج ٤ ص ٢٥٤] ونص ما ورد فيه: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبدالله بن أُبيّ قال لأصحابه لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لأنفضوا من حوله وهو القائل: (ليخرجن الأعز منها الأذل) [المنافقون الآية ٨] فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] قال النبي: «لأزيدن على السبعين» فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

رق الزجاج ورقت الخمر فتشاكلا فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر (١)

وأما المرائي والأجسام الصقيلة فلا يدرك موضع الصور منها ولا يدرك ما وراءها ويدرك الصور الغائبة عن عين المدرك بها لا فيها فالصور المرئية حجاب بين البصر وبين الصقيل وهي صور لا يقال فيها لطيفة ولا كثيفة وتشهدها الأبصار كثيفة وتتغير أشكالها بتغير شكل الصقيل وتتموج بتموجه وتتحرك بتحرك من هي صورته من خارج وتسكن بسكونه إلا أن يتحرك الصقيل كتموج الماء فيظهر في العين فيها حركة ومن هي صورته ساكن، فلها حركتان حركة من حركة من هي صورته وحركة من حركة الصقيل، فما في الوجود إلا حجب مسدلة والإدراكات متعلقها الحجب ولها الأثر في صاحب العين الدرك لها.

وأعظم الحجب حجابان:

حجاب معنوي، وهو: الجهل.

وحجاب حسي، وهو: أنت على نفسك.

فأما الحجاب الأعظم المعنوي فقول رسول الله (ﷺ) لما أسري به في شجرة فيها وكراً طائر فقعد جبريل في الوكر الواحد وقعد رسول الله (ﷺ) في الآخر فلما وصلا إلى السماء الدنيا تدلى إليهما شبه الرفرف دراً وياقوتاً وكان ذلك نوعاً من تجلي الحق قال عليه السلام: فأما جبريل فغشي عليه لعلمه بما تدلى إليه.

وأما رسول الله ﷺ فبقي على حاله لكونه ما علم ما هو فلم يكن له سلطان عليه فلما أخبره جبريل عندما أفاق أنه الحق قال ﷺ عند ذلك فعلمت فضله يعني فضل جبريل علي في العلم فالعلم أصعق جبريل وعدم العلم أبقى النبي ﷺ على حاله مع وجود الرؤية من الشخصين فهذا أعظم الحجب المعنوية، وأما كونك حجاباً عليك وهو أكثف الحجب الحسية فقول القائل:

بدا لك سرٌّ طالَ عنكَ اكتتامُهُ ولاحَ صباح كنتَ أنت ظلامُه
فأنت حجابُ القلب عن سرِّ غيبِهِ ولولاك لم يُطبَعْ عليه خِتامُه

---

(١) هذان البيتان هما للسهروردي المقتول، أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم بن شهاب الدين، من فلاسفة الصوفية، له كتاب «حكمة الإشراق»، وهياكل النور وغيرهما ولد سنة ٥٤٩ هـ وتوفي سنة ٥٨٧ هـ.

إذا غبت عنه حل فيه وطنبت   على منكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه   شهي إلينا نثره ونظامه

فما جعل حجاباً عليك سواك ثم نرجع إلى مسألتنا ونقول أما موسى عليه السلام فكان قد استفرغه طلب النار لأهله وهو الذي أخرجه لما أمر به من السعي على العيال، والأنبياء أشد الناس مطالبة لأنفسهم للقيام بأوامر الحق، فلم يكن في نفسه سوى ما خرج إليه، فلما أبصر حاجته وهي النار التي لاحت له من الشجرة من جانب الطور الأيمن ناداه الحق من عين حاجته بما يناسب الوقت ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طـه: ١٢-١٣]، ولم يقل لما أوحي أنني أنا الله فثبته الخطاب الأول بالنداء لأنه خرج على أن يقتبس ناراً أو يجد على النار هدى وهو قوله أو آتيكم منها بخبر أي من يدله على حاجته، فكان منتظراً للنداء قد هيأ سمعه وبصره لرؤية النار وسمعه لمن يدله عليها، فلما جاءه النداء بأمر مناسب لم ينكره وثبت، فلما علم أن المنادي ربه وقد صح له الثبوت وجاءه النداء من خارج لا من نفسه، ثبت ليوفي الأدب حقه في الاستماع، فإنه لكل نوع من التجلي حكم، وحكم نداء هذا التجلي التهيؤ لسماع ما يأتي به، فلم يصعق ولا غاب عن شهوده، فإنه خطاب مقيد بجهة مسموع بأذن وخطاب تفصيلي، فالمثبت للإنسان على حسه وشهود محسوسه قلبه المدبر لجسده، ولم يكن لهذا الكلام الإلهي الموسوي توجه على القلب فليس للقلب هنا إلا ما يتلقاه من سمعه وبصره وقواه حسبما جرت به العادة فلم يتعد الحال حكمه في موسى عليه السلام.

وأما أمر محمد ﷺ فهو نزول قلبي وخطاب إجمالي كسلسلة على صفوان فاجعل بالك لهذا التشبيه فاشتغل القلب بما نزل إليه ليتلقاه فغاب عن تدبير بدنه فسمي ذلك غشية وصعقاً، وكذلك الملائكة أخبر النبي ﷺ عن الملائكة في طريان هذا الحال أنه إذا كان الوحي المتكلم به كسلسلة على صفوان وكان نزوله على قلوب الملائكة، فإنه قال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣] ثم لما أفاقوا أخبر عنهم بأنهم يقولون، ﴿مَاذَا﴾ وهنا وقف ثم يجيبهم فيقول ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ وهنا وقف فيقولون ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ بالنصب أي قال الحق كذا علمناه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ عن هذا النزول في هذا النزول ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ عن هذا التشبيه في هذه النسبة. وعلى الوجه الآخر قالوا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ وهنا وقف فيقول بعضهم لبعض ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ من قول

الله لا من قول الملائكة فعلى الوجه الأول لما أفاقوا وزال الخطاب الإجمالي المشبه وزالت البديهة ﴿قَالُواْ مَاذَا﴾ فقال لهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ وهو قوله ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فما صعقوا عند هذا القول بل ثبتوا و﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي قال ربنا القول الحق يعنون ما فهموه من الوحي أو قوله ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أو هما معاً وهو الصحيح فهذا الفرق بين حال موسى عليه السلام وبين حال محمد ﷺ وحال الملائكة عليهم السلام.

واعلم أن في هذا المنزل من العلوم علم ثناء الحق على نفسه بخلقه وهو المثني على نفسه بغناه عن خلقه فأي الثناءين أتم وأحق وما هو الحق من هذين الثناءين؟ وما هو الحقيقة منهما أو كلاهما حقيقتان لحقين أو هما حقان ولهما حقيقتان، وفيه علم الفرق بين العلم والحكمة والخبرة، وفيه علم العلم بما في العالم بتقاسيم أحوالهم، وفيه علم النيابة في الأجوبة عن الله ولا يكون ذلك إلا لرسول أو نبي أو وارث عن سماع لخطاب إلهي لا عن تجل ولا خطاب حال، وفيه علم علم الله وفيه علم أين أودع الله علمه في خلقه من العوالم وهل أودعه في واحد أو فيما زاد على واحد؟ وفيه علم بماذا تتميز به القبضتان في عالم الشهادة، وبماذا تتميز في عالم الغيب؟ وفيه علم الدلالة على العلماء وأصحاب الأخبار الإلهية لنعرفهم فنتلقى منهم ما يأتون به عن الله فنساويهم في العلم بذلك رغبة في أن تلحق نفوسنا بنفوسهم في الصورة ،وإن اختلفت الطرق فلا أثر لاختلافها في صورة العلم، وهذا هو الذي يحرض الأكابر من العلماء الأكابر على نشر العلم كما يحرض المتعلمين على طلب العلم من أكابر العلماء الذين يعلمون أنهم أعلم بالله منهم، ومن هذا قال الرجل للتلميذ: «لأن ترى أبا يزيد مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة» لفضله عليه في العلم بالله لما علم أن ظهور الحق لعباده على قدر علمهم به فرؤيتنا الله بعلم العلماء به إذا استفدنا منهم أتم من رؤيتنا بعلمنا قبل أن نستفيده منهم.

وفيه علم إحاطة الاعتبار بالجهات وأن علم الاعتبار لا يخص حالاً من حال ولا جهة من جهة وأنه علم عام وهو علم يعطي الدلالة لمن رجع إلى الله بالعبودة، وفيه علم الأمر والنهي الإلهي بالمساعدة في العبادة وأعمال الخير، وفيه علم إرسال النعم الخارقة وما يحجب منها وماذا يحجب، وفيه علم قوى المسخرات في التسخير وإلى أين تنتهي قواهم فيما سخروا فيه، وفيه علم الموت المجهول في الميت وبماذا يعرف؟ كما حكى القشيري في رسالته عن بعضهم أنه مات إنسان فنظر إليه الغاسل فتحير فلم يدر أهو ميت أم ليس بميت وهو ميت في نفس الأمر ومثل هذا ظهر على

صاحب لي كان يخدمني فمات عندي فشك فيه الغاسل عند غسله هل هو ميت أم لا؟ وفيه علم أثر العلم في العالم ومن ادعى العلم ولم يؤثر فيه ما هو عالم وهي مسألة مشكلة يورث الأشكال فيها الحس فإنه ما رأينا أحداً يلقي نفسه في النار لعلمه أنها تحرقه إلا طائفتين الواحدة من تتخذها قرباناً فتلقي نفسها فيها طلباً للإحراق قربة إليها، أو من يعلم أنها لا تحرقه فعلمنا أن العلم له أثر في العالم.

وفيه علم آيات النعم وعلى ماذا تدل وما حقها على من يراها آية وفيه علم العلم القوي الذي يذهب بما سواه من العلوم التي يجدها في القلب وفيه علم الأدنى والأعلى وما السبب الموجب للطالب في طلبه الأدنى وتركه الأعلى مع علمه بمرتبة كل واحد منهما.

وفيه علم أسباب الجزاء في الخير والشر، وفيه علم البعد والقرب الكياني والإلهي، وفيه علم ما في علم القرب والبعد من الآيات الدالة على الله، وفيه علم موافقة الظن العلم وبماذا يعلم صاحب الحق أنه علم لا ظن، وقد كان يعتقد أن ذلك ظن، وفيه علم حال أهل الريب وبمن يلحقون من الأصناف وما ينظر إليهم من الأسماء، وفيه علم الحوالة وفيه علم أحوال الملأ الأعلى واختلافها عليهم لاختلاف الواردات في مقامهم المعلوم، وفيه علم ما لا ينسب إلى الله أعني لا يوصف به هل هو أمر عدمي أو وجودي، وفيه علم أين يشك العالم وهو ليس بشاك ولماذا يظهر بصورة الشاك وفيه علم ما يسأل عنه وما لا يسأل عنه، وفيه علم في ماذا يجمع الله بين عباده ثم يفصل بينهم في عين هذا الجمع فهم فيه مفصلون، وفيه علم من ادعى أمراً طولب بالدليل على ما ادعاه إذا ادعى ما يريد أن يؤثر به في أحوال العالم، وفيه علم ما لا يقبل التقدم ولا التأخر من الأحوال، وفيه علم الحجاج، وفيه علم التقريب وإلى من يكون القرب هل إلى كون أو إلى الله، وهل يصح القرب إلى الله أم لا؟ وهو أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد كما قال تعالى، وفيه علم الإعراض، وفيه علم الفرق والتبري بين الأرواح وفيه علم ما يقال عند رؤية الدلالات، وفيه علم الأجر المعاد وإلحاق الشيء بجنسه، وفيه علم من يدري ما يقول وما يقال له ومن لا يدري ما يقول ما يقال له من ذلك، وفيه علم رد الأمور كلها حيرتها وإنابتها إلى الله وخيرها وشرها، وأن الشر ليس إلى الله، وفيه علم الإدراك الإلهي، وفيه علم ما لا يدرك مما يجوز أن يدرك، وفيه علم ما يمنع الاحتلام بالرؤية، وفيه علم الموانع.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.